مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

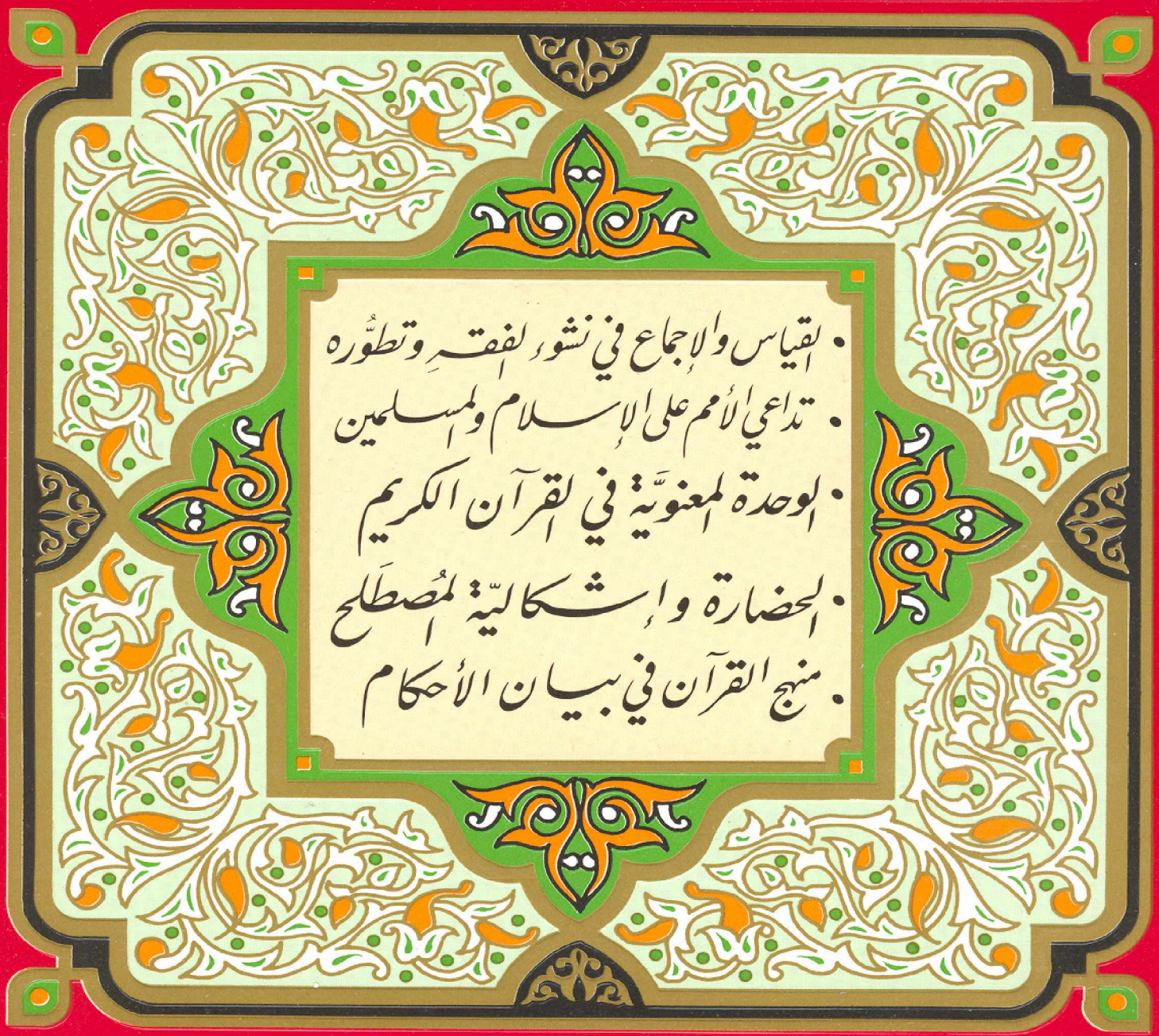

خلق الإنسان وصفاته

د. عمارة حنين بيت لعانية
كلّية الدّعوة الإسلاميّة

تمهيـد:

حظي الإنسان باهتمام القرآن الكريم، فكان توجهه إليه مربياً بكل أساليب التربية، ما ظهر منها واستبانته ثواقب فكر البشر، وما لم يطلعوا عليه بعد. ويقصد القرآن الكريم بذلك أن يوضّح للإنسان المسلك القويم في الحياة الدنيا ليعيش سعيداً، وكذلك المسلك القويم للاستعداد ليوم القيامة، وللحياة الآخرة.

ودونما لبس، جلّى لنا القرآن الكريم معالم بارزة في خَلق الإنسان، وفي صفاته، مما لا غنى للإنسان عن معرفته عن نفسه، وعن سواه، حيث يتعامل الإنسان مع البشر من حوله، وهو بحكم هذا التفاعل مضطر لأن يكون على

دراية بالخصائص الخَلْقية، والصفات الفطرية التي ركبت في البشر، إذ توضّح هذه الخصائص والصفات كيفية التعامل مع البشر. وقد دُعِيَ البشر لمعرفة النفس الإنسانية، وسبر أغوارها، ومحاولة معرفة أسرارها، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

ويظل القرآن لا يَخلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولم يدَّع أحد الإحاطة بمكنونه، والمعرفة بمضمونه في كل آياته. وتجيء هذه المحاولة البشرية القاصرة ـ لا محالة ـ مستهدفة ترتيب أفكار لا يدّعي هذا القلم أنه سبق إليها، لكنه عَرْض ربما يكون لترتيبه وقع، ولصياغته معنى يجعله جديراً بتوضيح جوانب مهمة من الصفات البشرية التي تحكم أفعالنا.

خلق الإنسان:

منذ القدم كان التفكير في الإنسان موضع اهتمام الفلاسفة، وعلى الرغم مما ظهر من نظريات وآراء متعددة متشابكة ومختلفة عن الإنسان، لكن، لا زال التفكير فيه قائماً، ولا زالت المحاولات تترى تتسابق لتفسير سلوكه، والإحاطة بمعالم شخصه، لَكن القرآن الكريم أوضح أكبر قدر مهم لجوانب شخص الإنسان، وقدم إجابات شافية عن التساؤلات المفترضة التي لفهمها دور في فهم النظرة إلى الإنسان.

فقد احتوى القرآن الكريم على تفصيل كامل شامل لماهية الإنسان وخلقه وطبيعته، حتى يقول البعض إن «القرآن الكريم كتاب الإنسان، فالقرآن كله إما حديث للإنسان أو حديث عن الإنسان»[2]، فأصل الإنسان مخلوق من طين ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[3]، بل من سلالة من طين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[4]، بل من طين لازب، لكن كانت صورة خلق

---

(1) سورة الذاريات: الآيتان: 20 ـ 21.

(2) يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، مكتبة وهبة ـ القاهرة، ط: 1، 1977م، ص: 33.

(3) سورة ص، الآية: 71.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 12.

الإنسان حسنة ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[5] ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾[6]، وبذلك لم تكن لإبليس أفضلية لأصل خلقه، مع أنه ادعاها: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِى مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[7]، فقد شبه طلع الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم بأنه كرؤوس الشياطين دلالة على قبحه المنفر.

لقد كان خلق آدم (أبي البشر)، موضع تساؤل من الملائكة؛ ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٞ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[8]، فكانت مشيئة الله في جعله خليفة في الأرض نافذة أمضاها، وهي فوق علم الملائكة. وكان خلق آدم بيد الله، ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[9]، ونفث فيه من روحه، ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[10].

فمادة خلق الإنسان هي الطين، هذا الطين سوّى منه الخالق بشراً، هو أبو البشر جميعاً (آدم عليه السلام)، الذي هو من أديم الأرض، سوّاه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا، إلا إبليس أبي واستكبر، ومن تلك اللحظة كان بدء العداوة بين الإنسان والشيطان، التي سببها إبليس.

ويتابع القرآن الكريم إيراد قصة خلق البشر تفصيلاً، وأنهم ذرية ذلك الإنسان آدم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾[11]، فمن ذلك الإنسان الفرد ظهرت زوجة، ثم تم التكاثر، وانتشر الرجال والنساء في أرجاء الأرض. ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ * وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ

(5) سورة السجدة، الآية: 6.
(6) سورة غافر، الآية: 64.
(7) سورة الأعراف، الآية: 11.
(8) سورة البقرة، الآية: 30.
(9) سورة ص، الآية: 75.
(10) سورة ص، الآية: 72.
(11) سورة النساء، الآية: 1.

بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[12]، «فمن ذات الجنس البشري كانت النساء أزواجاً للرجال، ركّب الخالق في فطرتهم التزاوج، وحقق لهم بذلك السكن، وجعل بينهم مودة، وهي المحبة، ورحمة وهي الرأفة، ولو أنه ـ تعالى ـ جعل بني آدم كلهم ذكوراً، وجعل إناثهم من جنس آخر لما حصل هذا الائتلاف بين الأزواج»[13].

ويورد القرآن الكريم مراحل عمر الإنسان في ملخص واف، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[14]. وفي تفصيل آخر يوضّح مراحل الخلق في بطن الأم حتى الولادة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[15]، هذا الكائن يقرّه الله في الرحم إلى وقت محدد، وقد يموت من قبل أن ترى عيناه النور ويطرحه الرحم، وقد يخرج للحياة بعد أن يمضي في الرحم وقتاً محدداً، مقرراً معلوماً عند الله، يخرج إلى الحياة طفلاً صغيراً لا يعرف عن الحياة شيئاً، ويبدأ تدرجه في النضوج ليصل رشده وعنفوان قوته، وقد يقصر به العمر عند أية لحظة، وقد يمتد به العمر حتى يُرد إلى أرذله، حيث يفقد الذاكرة ومجمل قواه الجسدية؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[16].

---

(12) سورة الروم، الآيتان: 20 و21.

(13) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير ابن كثير، دار البيان العربي ـ القاهرة، (ب.ت)، حـ: 3، ص: 429.

(14) غافر، الآية: 67.

(15) المؤمنون، الآيتان: 13، 14.

(16) الحج، الآية: 5.

«إن تطور الجنين في الرحم ـ كما يصفه القرآن ـ يستجيب تماماً لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين، ولا يحتوي هذا الوصف على أي مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها»[17].

فبعد استقرار النطفة في الرحم، وتعلقها بجداره، تصير مضغة، أي: ما يشبه اللحم الممضوغ، هذه المضغة لا تستبين فيها معالم بنية جسم الإنسان دفعة واحدة، بل تدريجياً حيث يكون هناك جزء مخلّق وآخر يجري تكوينه، وبمشيئة اللّه لا يستقر الكائن البشري في الرحم، أو يستقر وتكتمل مدته الكافية لاستوائه، ثم يكون خروجه للحياة.

فبداية الإنسان ضعف ومنتهاه إلى ضعف: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[18]. وإذا راودت الإنسان نفسه بالتكبر، فإن الله يصف له أصل خلقه ومادة نسله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[19].

لقد أحاط القرآن في شمول تام بأصل خلق الإنسان، فذكر مادة خلقه (الطين)، ثم كان نسله الذين تكاثروا من ماء مهين، فيتكون ـ بمشيئة اللّه ـ الإنسان في بطن أمه عبر سلسلة من المراحل المتداخلة، لتنتهي إلى طرحه ميتاً، أو خروجه إلى الحياة يعمر فيها ما يشاء اللّه له من العمر، ثم تنتهي دنياه.

هذه الدنيا زائلة وعلى الإنسان أن يتزود منها للآخرة بما يفعله من حسن وبما يعمر قلبه من إيمان بالله وتقوى له. فالدنيا زائلة والمعوّل عليها هي الدار الآخرة، ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾[20].

إن لعمر الإنسان نهاية محددة إذا حانت لا يتعدّاها، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ

---

(17) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص/ 232.

(18) سورة الروم، الآية: 54.

(19) سورة السجدة، الآيتان: 7 ـ 8.

(20) سورة محمد، الآية: 37.

حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[21]، وللكون نهاية، ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[22]. وعندما تقوم الساعة يكون الحساب على الأعمال، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾[23].

إنها قصة خلق الإنسان يوردها القرآن الكريم كاملة، ليزيل ما قد يصاحبها من لبس، وليكشف خباياها، حتى يسترشد بوضوحها الساعون إلى الحقيقة. ومما لا ريب فيه أن استحضار هذه المعرفة بالإنسان يفيد في معرفة كيفية التعامل معه، وهكذا نجد الحرص الكبير على البحث الدائب لمعرفة ما يتعلق بالإنسان.

صفات الإنسان في الإسلام:

1 ـ الإنسان مكرّم، وهو خليفة الله في الأرض: يورد القرآن الكريم صفة الخلافة للإنسان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[24]، وهذا يدل على أن الإنسان مخلوق لخلافة الأرض، وذلك لا يتسنى له إلا إذا سخرت الإمكانيات الموجودة في محيطه، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[25]. وكان من مظاهر هذا التكريم التمكين للناس في الأرض، وبث الرزق لهم، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾[26].

فالإنسان مكرّم بتفضيله على كثير من مخلوقات الله، وكرّمه مرّة أخرى إذ أنعم عليه بالإسلام ـ إن اهتدى إليه ـ وزاد في تكريم المؤمن إن كان تقيّاً، ﴿إِنَّ

---

(21) سورة الزمر، الآية: 36.
(22) سورة الروم، الآية: 7.
(23) سورة الروم، الآيتان: 14 و15.
(24) سورة البقرة، الآية: 29.
(25) سورة الإسراء، الآية: 70.
(26) سورة الأعراف، الآية: 9.

أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[27]. «ويتجلى احترام الله كرامة الإنسان وحريته، تقريره حقه في اختيار دينه وعقيدته، فلا فرض على الإنسان، حتى مع اختيار دينه مع تحمّله تبعة اختياره، فهو صاحب القرار الأوحد بغير فرض من الله، ولا من غيره»[28]. قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[29].

لقد أُعطي للإنسان العقل وترك له اختيار دينه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[30]، وفي هذا قمة ما يمكن تصوره من الحرية المطلقة في الاختيار، إذ لم يجبر الخالق البشر على أن يكونوا على الطريق المستقيم، ولكن الاختيارين متاحان أمامهم.

فالحق موفور للإنسان، غير منتقص، والاختيار هو من خصوصيات الإنسان ذاته، ولم يكن حتى للنبي ﷺ، وهو يحمل الرسالة ويبشر بها أن يرغم الناس على أن يؤمنوا بالإسلام، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[31]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[32]. «إن كرامة الإنسان جزء من ذات وجود الإنسان، وليست تقييماً لهذا الوجود، لهذا لا يمكن فصلها عنه، وإلا اختل ذات الوجود»[33]، ولهذا فإنه لا يصلح أن تكون حرية الإنسان التي هي جزء من كرامته ووجوده، موضعاً لأن ينتقص منها الآخرون أو يساوموا الإنسان عليها.

وهكذا يقرر الإسلام حرية الإنسان في ممارسة العمل العقلي، بعدم ممارسة التوجيه القسري للتفكير وإطلاق العنان له، وكذا حق الإنسان في اختيار

---

(27) الحجرات، الآية: 13. وانظر في تكريم الإنسان بالإسلام والتقوى: علي جريشة، نحو نظرية للتربية الإسلامية.

(28) أحمد يسري: حقوق الإنسان وأسباب العنف في المجتمع الإسلامي، منشأة المعارف ـ الإسكندرية، 1993م، ص: 27.

(29) سورة البقرة، الآية: 254,.

(30) سورة الكهف، الآية: 29.

(31) سورة القصص، الآية: 56.

(32) سورة البقرة، الآية: 271.

(33) أحمد يسري، حقوق الإنسان، مرجع سابق، ص: 26

الدين، وحقه في ضمان أمنه، في بدنه وماله وعرضه وتنقله وكرامة جسمه حياً وميتاً.

ويقرر الإسلام كرامة روح الإنسان، وعدم امتهانه، ومعاملته بالحسنى، وينهى عن السخرية من الآخرين، وينهى عن اللمز والتنابز بالألقاب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[34].

وقرر الإسلام الكرامة وأوجبها حتى على الإنسان ذاته، وذلك ما نستوضحه جلياً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا * فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا﴾[35].

فعدم الرضا بالذلة والضعف واجب على الإنسان، بل إنه يحاسب، ويرد إلى العذاب يوم القيامة إذا تهاون في إذلال نفسه، واستكان للظلم ورضي به، وأقام تحت هيمنته.

والإنسان موضع عناية الإسلام، حتى وهو جنين في بطن أمه، ففي الآية الكريمة: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾[36]، إشارة واضحة إلى وجوب العناية بالأم الحامل؛ حتى في حال الانفصال عنها بالطلاق، حيث يقرر الخالق وجوب النفقة عليها حتى تضع حملها، وإذا تم الاتفاق معها على الإرضاع، فيعطي لها الأجر، بما يمكنها من تغذية وليدها، وإذا لم يكن هنالك اتفاق على إرضاع المولود، فهو محلّ عناية إذ سترضعه أخرى.

---

(34) سورة الحجرات، الآية: 11.

(35) سورة النساء، الآيات: 96 ـ 98.

(36) سورة الطلاق، الآية: 5.

أما إذا كانت الحياة الزوجية في استقرار، فمن الطبيعي أن تكون أحسن حالاً من ظروف الطلاق، وعندها من المؤكد أن الإنفاق، وغيره من ضرورات الحياة، لن يكون إلا محل عناية واهتمام.

وفي موضع آخر بيان لمدة الإرضاع، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾[37]، وبذا يؤمن الإسلام الغذاء للرضيع بتقرير المدة الكافية، إذا كانت الظروف مواتية، والنية معقودة على إتمام الرضاعة، وتحدد الآية واجب الأب في توفير رزق الوالدة وكسوتها بما تعارف عليه الناس وتيسر لديه، مع النهي عن إلحاق الضرر بالوالدة بسبب وليدها.

هذا الإلزام بما يجب أن يكون تجاه المولود هو في بعض جوانبه ضمان لحياته الكريمة، وتمكين له من أن يعيش وينمو في ظروف طبيعية؛ تتوفر فيها للأم مقومات الحياة الكريمة، فلا تكون في حاجة للبحث عن عمل تقتات منه وهي مرضع، ولا تكون في ظروف نفسية مضطربة، بل في استقرار نفسي ينعكس إيجاباً على المولود، فيتوفر له الحنان اللازم لنموه سليماً جسمياً ونفسياً.

2 ـ الإنسان جسم وعقل وروح: قال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[38]. الإنسان مخلوق وهذه التركيبة الظاهرية التي تبين لكل ناظر هي جسم الإنسان، بما فيه من أطراف بارزة، وأعضاء مغمورة معقدة التركيب، تؤدي وظائف محددة ومختلفة بعضها عن بعض، لكنها تتكامل في الكتلة المنظورة جسداً واحداً يؤدي وظائفه في الحياة، هذا الجسد يحمل روحاً نفخها الله فيه، لكن تفصيلاتها غير واضحة لنا ولا نعلم من أمرها غير اسمها، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[39].

---

(37) سورة البقرة، الآية: 231.

(38) سورة ص، الآيتان: 70 ـ 71.

(39) سورة الإسراء، الآية: 85.

والجسد والروح ليسا منفصلين، فهما في الإنسان وحدة متكاملة عندما يكون مستيقظاً، لكن الانفصال يكون بالموت، فترجع النفس المطمئنة إلى ربها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[40]. أما النفس الشقية فلا تفتّح لها أبواب السماء.

وحظي الإنسان بالعقل، وكرّمه الله به دون كثير من المخلوقات سواه، وبفضل العقل تيسر للإنسان استغلال موارد الطبيعة وتسخيرها لصالحه، وبنى حضارة تجمّع عنفوانها في هذا القرن نتاجاً للتفكير والعمل البشري على مدار قرون من عمر البشرية.

وقد وردت في القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى ضرورة استعمال العقل، وفي: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام استنكاري لعدم استخدام المخاطبين عقولهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[41]، وفيها يضع الله الذين لا يستخدمون عقولهم فيما خلقت له، في موضع منحط. «إن أشدّ ما يندم بسببه الكفار يوم القيامة، هو أنهم كانوا قد عطلوا عقولهم، فلم يستخدموها في الاتجاه الصحيح الذي يربط بين أعمالهم، وبين مراعاة خالقهم»[42]. وذلك ما عبّر عنه القرآن الكريم عندما يورد لوم الفجار أنفسهم وهم في النار: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[43].

فالعقل يقود إلى الإيمان، ويؤهل الإنسان للاستفادة من موجودات الطبيعة حوله، ويمكنه من التفاعل على المثمر معها. والقوّة العقلية هي التي تمكن الإنسان من التأمل العميق والتخيل والإدراك والترجيح والتحليل والبرهنة والحكم، وكل العمليات العقلية الراقية، وما دونها، وكل ذلك يجلب للإنسان السعادة لما له من تطبيقات مثمرة في حياة البشر.

كما أن العقل هو الذي يتمكن الإنسان بواسطته من التعلم، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ

---

(40) سورة الفجر، الآيات: 30 ـ 32.

(41) سورة الأنفال، الآية: 22.

(42) حسن الشيخ الفاتح، المفهوم الإسلامي للتربية، دار الجيل ـ بيروت، ط: 1، 1992م، ص: 46.

(43) سورة الملك، الآية: 10.

ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾[44]، فالإنسان قابل للتعليم بالعقل الذي حباه الله به.

وكما أتيح للعقل مداه في الانطلاق واستخدامه، كذلك أتيحت أمام الجسم فرص الإشباع لمتطلباته الطبيعية، بإتاحة فرص مشروعة أمامه، لا تتنافى مع الفطرة، ولا تتعارض مع أخلاق المجتمع الإسلامي.

وشرع ما يجلب للروح؛ الانشراح في توازن لا يخلّ بأخلاق الإسلام وصونه للأعراض، وبما لا يضيّق على الإنسان في حياته، كما أمر الإنسان باحترام النفس الإنسانية، والترقي بها باتباع الآداب الإسلامية السامية.

وبمعرفة اتصاف الإنسان بالجسم والعقل والروح، يجب على المربين مراعاة كل منها، وما تفرضه من متطلبات وما تستدعيه للتعامل معها، أي: أن يراعي المربون هذه الصفات، وأن يتيحوا لها أكبر قدر ممكن من النمو السليم، مع عدم إغفال أن الإنسان يتعرّض للمرض في جوانبه الثلاثة؛ الجسم والعقل والروح، وهو في حال مرضه يحتاج إلى عناية أكبر وتقدير خاص.

3 ـ الإنسان مجبر ومخيّر: «لقد عرضت أمانة حمل المسؤولية على كثير من مخلوقات اللّه، لكنها عندما عرفت ثقلها وأعباءها أبت أن تحملها، عرفاناً منها بثقل المسؤولية، واحترم كرم الخالق هذا الإباء فأعفاها، وكان قادراً، لو أراد، على الفرض»[45]، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[46].

لقد اختار الإنسان حمل المسؤولية، وإن لم يكن يقدّر تبعة ذلك، ولم يستبن أن حريته قد تسوقه إلى المخالفة، ويقع في المحظور ويستحق العقوبة، لكنه مع كل ذلك اختار طريق الحرية وتحمّل المسؤولية، وهكذا فهو حرّ فيما يقع تحت إرادته وتصرّفه، شرط أن يكون هذا الإنسان نفسه سوياً.

---

(44) سورة البقرة، الآية: 30.

(45) أحمد يسري، حقوق الإنسان، مرجع سابق، ص: 24.

(46) سورة الأحزاب، الآية: 72.

وفي ذات الوقت لا يوجد تناقض بين قدرة الله وإحاطته بشؤون خلقه وبين حرية الإرادة التي يتمتع بها الإنسان، لأن هذه الحرية هي في حد ذاتها هبة من الله، عرضت على الإنسان فتقبّل تحمّلها، وتحمّل نتائجها. كما أن مدى ما يفكر فيه أو يفعله الإنسان، محكوم بعلم الله. وبناء على حرية الإرادة فإن الإنسان مكلّف، أي إنه مسؤول، ويتحمل مسؤولية ما يقوم به من عمل، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[47]، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[48]، ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[49].

لكن رحمه الله التي وسعت كل شيء لا تحمّل الإنسان أكثر مما يطيق، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾[50]، من هنا يعرف المربون أن لدى المرء الإرادة والقدرة على الفعل والمسؤولية عنه، لَكِنْ، تخرج عن إرادته ومقدرته ومسؤوليته أمور هي من المقدّر عليه، الخارج عن إرادته. كل هذا يتيح للمربين التعامل مع الفرد بما يقدر عليه وما ينفعه، وما يقع تحت إرادته، ويقفون عند حدود ما يخرج عن ذلك، مما لا اختيار له فيه، فلا يكلفونه القيام به.

4 ـ الإنسان مخلوق للعبادة ولديه استعداد للتدين: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[51]، يبيّن الخالق في هذه الآية أن سبب خلق الجن والإنس محصور في عبادته تعالى، وهذا معناه أن لدى البشر ـ موضع اهتمامنا ـ المقدرة على العبادة، إذ لا بد أن الله عندما خلق الإنسان ليعبده رتب في فطرته ما يلزم، وما يؤهله للعبادة، وإلا فإن الإنسان لا يكون قادراً عليها، ولا يكلف بها، لعدم وجود ما يؤهله للقيام بها. ونحن نعرف أن المدرسة التي يتعلم فيها المتعلمون، تُعَدُّ بمواصفات تجعلها قابلة لاستقبالهم وتيسير تعلمهم،

---

(47) سورة فصّلت، الآية: 45. والجاثية، الآية: 14.

(48) سورة النساء، الآية: 92.

(49) سورة النساء، الآية: 110.

(50) سورة البقرة، الآية: 285.

(51) سورة الذاريات، الآية: 56.

كأن تحتوي على القاعات اللازمة، والأدوات الضرورية للقيام بالعملية التعليمية، وإلا فإن أبسط ما يعترض به المعترضون هو خلوّها من ذلك، وعدم إعدادها لتكون صالحة مكاناً للتعليم.

وعند التعرّض لخلق الإنسان للعبادة، نجد أنفسنا أمام حقيقة باهرة، هي أن الإنسان لا بدّ أنه أعدّ بكيفية تؤهله للعبادة، هذه الكيفية هي أنه ركّب فيه ما يجعله مستعداً للتدين، ولا يجوز في حق الله، القادر على كل شيء، ألا يرتّب ذلك في الإنسان، في حين يحصر سبب خلقه له في العبادة.

وفوق هذا التأهيل للإنسان، هناك تصريح بأن الفطرة التي فُطر الناس عليها هي دين الإسلام، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾(52).

وهذا الفهم الإسلامي لطبيعة الإنسان التي ركبت فيها العبادة وفطرت على الإسلام، لا يتناقض مع معطيات الحياة في البلدان المختلفة، حيث توجد عقائد كثيرة فاسدة ومضطربة. إذ إن سبب الانحراف هو من نواتج التربية التي يخضع لها الإنسان، أما لو تم تقديم الإسلام له، وهو في صباه وطفولته ورشده، لما كان ذلك غريباً على فطرته النقيّة أصلاً، التي تملك الاستعداد للعبادة الصحيحة.

وعندما يقف المربون على هذا الفهم لطبيعة الإنسان القابلة للعبادة، والمخلوقة على الفطرة النقيّة، التي تؤهله للاتصال المباشر بخالقه، يتيسر لهم ـ أي المربين ـ رسم وتطبيق المنهج القويم والفاعل لزرع العقيدة الصحيحة، وتحرير النفوس من خشية غير الله، وتحريرها من أية عبادة زائفة.

5 ـ الإنسان خيّر والشّر طارىء عليه: الإنسان مخلوق للعبادة، والعبادة تنطوي على التوحيد، ونبذ الشرك، وانتهاج السلوك الحسن والخلق الفاضل، وهذا يعني أن الأصل في خلق الإنسان هو الاتصاف بصفات خيّرة رضيّة.

(52) سورة الروم، الآية: 29.

وعندما يصف الله نفسه بأنه الحق، فذلك يعني أن الحق ثابت ودائم، وتكون الفطرة التي ركبها في الناس سليمة خيّرة، لأن أصل الخلق لغاية إلٰهية سامية، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[53]، وهكذا فما اتصل باللّه فهو طبيعي بالفطرة، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[54].

أما الباطل فإنه غير ثابت، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[55]، فمن صفات الباطل أنه يزيغ ويمّحي مع ما يكون له من وجود في أحايين كثيرة، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[56]، فانتصار الله إلى جانب الحق الثابت، والزوال للباطل الطارىء على الفطرة.

كل ذلك يبين أن الأصل في فطرة الإنسان، هو الخير، وأن الشرّ طارىء على الإنسان عارض له، وأنه يمكن تنحيته عنه ما دام غير لصيق ولا أصيل في فطرته، فحتى الذي تكون معه عداوة إذا تمت معاملته بالحسنى، وتم التفاعل مع ذاته الخيّرة، يصير كأنه ولي حميم، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[57].

لكن ملحمة الصراع الأبدي، التي بدأت منذ ظهور آدم، والتي برز الشيطان فيها عدواً للإنسان، تسري تفاعلاتها عبر كل الأجيال، «ويزين الشيطان للكثيرين أعمالهم القبيحة ويغريهم بالتمادي فيها»[58]، ولكن يأتي النصح الإلهي المؤكد: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[59]، ومع ذلك يظلّ الصراع مستمراً،

---

(53) سورة المؤمنون، الآية: 116.

(54) سورة الروم، الآية: 29.

(55) سورة الإسراء، الآية: 81.

(56) سورة الأنبياء، الآية: 18.

(57) سورة فصلت، الآية: 33.

(58) ابن الجوزي، تلبيس إبليس.

(59) سورة فاطر، الآية: 6.

وتنحرف أنفس كثيرة عن جادة الصواب، وتنحاز إلى الشيطان بالكامل، أو تمارس خليطاً من الأفعال المتذبذبة بين الحسن والقبيح، فالخطيئة موجودة عند الإنسان، مع أن الخير سابق في تكوينه، ويرجع ذلك إلى ما في الإنسان من ضعف، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[60]، فقد ينهار أمام التحديات، وتفتر عزيمته، ويتثلم إيمانه أو ينهار كليّة، ومع كل ذلك يظلّ باب التوبة مفتوحاً، ويظلّ الرجوع إلى الحق مؤملاً ومتاحاً للإنسان.

هذا الفهم للإنسان يمكّن من بلورة تفكير سليم في التعامل معه، عبر الأساليب المتنوعة التي تستخدم في تربيته، والتي يجب ألا يحدوها اليأس في سبيل إصلاحه، ورده إلى جادّة الصواب عند انحرافه.

6 ـ في الإنسان ميول ونزعات وقدرات واستعدادات: الإسلام يتعامل مع شخص الإنسان، ولا يهمل المعطيات التي يفرضها التكوين المتكامل للإنسان، ولا يعترض عليها، أو يشرّع انطلاقاً من عداء للإنسان، بل إن الإسلام يتعامل مع الإنسان مع كامل التقدير والاحترام، لما عليه الإنسان من خصائص، يلتقي فيها الفرد مع الآخرين، أو يختص بشيء منها دونهم. إضافة إلى ذلك فإن القرآن الكريم أوضح، بجلاء تام، كثيراً من هذه الأمور التي هي من خصائص الإنسان، حتى يتم التعامل معها دون القفز عليها وتجاهلها، وترك للعقل البشري ـ وراء ذلك ـ أن يغوص حتى في مكنونات النفس البشرية، ويحلل ما يستطيع من خباياها، كي يصل إلى الصواب، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[61].

وعندما يشير القرآن إلى بعض خصائص الإنسان، يوضح الطريق الصواب الذي يجب أن يسلكه، وذلك بتهذيب الخاصية، وتوجيهها نحو ما ينفع الإنسان، ولا يضرّ بسواه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[62]، فهذه الآية تبيّن أن في الإنسان حباً للاستطلاع، قد يجرّ إلى الفضول، لكنها ترشد إلى ما يجب لتوجيه تلك الخاصية.

---

(60) سورة النساء، الآية: 28.

(61) سورة الذاريات، الآية: 21.

(62) سورة الإسراء، الآية: 36.

ويضع القرآن أيدينا على حقيقة من خصائص الإنسان، عندما يورد أنه يولع بالقديم، ويركن إلى التقليد، وقد يخشى الجديد والتجديد، قال تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[63]، فالكفرة يردّون على دعوة الإيمان بأنهم سائرون على نهج عبادة ورثوها، حين وجدوا آباءهم عليها، لكن التوجيه القرآني الكريم، يستفهم مستنكراً عليهم ذلك، رادّاً دعواهم، بأن آباءهم لم يتدبروا تلك الأمور بالعقل، ولم تحصل لهم الهداية، فكيف يكون تقليدهم وهم على ضلاله.

فبقدر بيان خاصية التقليد والنزعة إليه، كان هنالك توضيح بأنه لا يكون لمن هم على ضلالة، فلم يُعَب التقليد في حد ذاته، ولكنه معيب لأنه تقليد أعمى.

وقد يرتكب الإنسان عصياناً وهو على ضلالة، وتوضّح مناداة نوح ورد ابنه، وقد ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[64]، هذه الخاصية، قال تعالى ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[65].

وفي الإنسان خاصية المجادلة، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[66]، ويرعى الإسلام هذه الخاصية بتهذيبها، وضبط المجادلة بأن تكون هادفة، وأن تكون بالحسنى، ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[67]، وفي الإنسان خاصية الاستعجال، ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾[68]، ويربي

---

(63) سورة البقرة، الآية: 169.

(64) اقتباس من سورة هود، الآية: 40.

(65) سورة هود، الآية: 42، ومن الآية: 43.

(66) سورة الكهف، الآية: 53.

(67) سورة النحل، الآية: 125.

(68) سورة الإسراء، الآية: 11.

الإسلام هذه الخاصية بضبط النفس، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[69].

وفي الإنسان نزعة إلى المال وجمعه، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[70]، ويربي الإسلام ذلك ببيان أوجه الحلال التي يجمع منها المال، ويفرض الزكاة فيه، يُرغِّبُ في التصدّق منه حتى يزكو. كما يربي الإسلام معتنقيه بإيراد أوجه إنفاق الأموال.

«وفي بعض الناس نزعة إلى المباهاة والتفاخر بالجاه والمال والولد، فنهى الإسلام عن ذلك، وعدّها من زينة الدنيا الفانية، وقد يضطر طالبها إلى عمل المحظورات للتوصل إلى مبتغاه»[71]. قال تعالى ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[72].

ولدى الإنسان قدرات كثيرة على أداء أعمال معينة، سواء كانت حركية أو عقلية، ومن هذه القدرات ما هو مكتسب، ومنها ما هو فطري، «ولدى الإنسان استعداد لتعلّم عمل ما إذا دُرّب التدريب المناسب، ولديه مقدرة على التحصيل الدراسي، والوصول إلى الكفاية فيما يتعلّق بالمهن والحرف، وكثير اً ما يمتاز مختلف الأشخاص بمهارات متنوعة حيث يكونون قادرين على الأداء المنظم المتكامل للأعمال الحركية المعقدة بدقة وسهولة مع التكيف للظروف المتغيرة المحيطة بالعمل»[73].

7 ـ الإنسان فرد في مجتمع: تأرجح الفكر التربوي الحديث والمعاصر في تطرفه عندما تناول مسألة العلاقة بين الفرد والمجتمع، فنادى البعض بوجوب إفساح المجال للفردية في التربية، ودعا آخرون إلى إحداث توازن بين الفرد

---

(69) سورة آل عمران، الآية: 134.

(70) سورة الفجر، الآية: 22.

(71) عباس بو صالح، التربية الاجتماعية عند الشيخ الفاضل أبي هلال، محاضرة منشورة في كتاب: الفكر التربوي الإسلامي، مركز التأليف المقاصدي ـ بيروت، 1981م، ص: 188.

(72) سورة الكهف، الآية: 45.

(73) عبد الرحمن العيسوي، علم النفس في المجال التربوي، دار العلوم العربية ـ بيروت، ط: 1، 1989م، ص: 303.

والمجتمع، في حين دعا فريق ثالث إلى تغليب النزعة الاجتماعية وطمس الفردية ووأدها[74]، أما الإسلام فقد سبق هؤلاء وهؤلاء، عندما دعا إلى إقامة التوازن بين الفرد والجماعة، وعدم إفساح المجال لطغيان أحدهما على الآخر، وقرر أن الفرد جزء من الجماعة لا ينفصل عنها إذا أراد الحياة السويّة، وأن الجماعة مكوّنة من أفراد، ولا يتصوّر وجود جماعة بدون أفراد. والإسلام يرى أن الفردية المطلقة، تناهض الجماعية المطلقة وأن العكس بالعكس، والإسلام يناهض هذين الاتجاهين كليهما، فهو نظام للفرد والجماعة معاً، دونما تغليب لأحدهما على الآخر.

يركز الإسلام على فردية الإنسان ويبيّن أن له استقلاليته عن غيره من البشر، تتلمس ذلك من خلال المخاطبة العامة في القرآن الكريم لكل الناس في أكثر من موضع، حيث وردت كلمة (الإنسان) وحدها دون غيرها من اشتقاقات اللفظة خمساً وستين مرّة.

فالتوجيه يشمل كل الناس، ويصلح أن يكون موجهاً للشخص الواحد بذاته، «ولهذا يشمل الحب والتكريم كل الناس بلا قيد من أيّ نوع، لأن الله لا يستبعد أحداً من إنسانيته، فلا يستبعد أحداً من خطابه الذي يتوجه إليه مباشرة بغير وساطة، دليلاً على الاعتراف بهذا الإنسان ـ مطلق الإنسان ـ واحترامه ومحبته»[75].

هذا الإنسان الذي له التكريم والاحترام، لا يفترض الإسلام أنه يعيش بمعزل عن المجتمع، ولا يجب أن يكون كذلك، بل هو عضو في المجتمع من حوله وله علاقات بهم. ويقرر الإسلام: كيف يكون الإطار العام للعلاقات الإنسانية؟ وما هو أسلوب التعامل بين البشر؟ وما هي الآداب التي يجب أن

---

(74) عز الدين التميمي وبدر إسماعيل سمرين، نظرات في التربية الإسلامية، دار البشير: عمّان، الأردن، ط:1، 21985م، ص:135. ومن أمثلة المنادين بإفساح مجال للفردية الفيلسوف الإنجليزي (برتراندرسل)، ومن أمثلة المنادين بإحداث توازن بين الفرد والمجتمع الفيلسوف التربوي الأمريكي (جون ديوي)، ومن أمثلة المغلبين للجماعية على الفردية الماركسية وتطبيقاتها.

(75) أحمد يسري، حقوق الإنسان، مرجع سابق، ص:34.

يراعيها كل منهم لاحترام أشخاص الآخرين من أبناء مجتمعه أو المجتمعات الأخرى؟ كل ذلك يرينا أن النظام المستهدف نظام للجماعة باكملها، ينطلق من إقرار وجودها الفعلي، ويضع الضوابط لعلاقاتها.

ومع كل ذلك الارتباط للفرد بالجماعة، ينصف العدل الإلهي الإنسان، فيعامله على أنه مختلف عن سواه، ولا يحمّله المحاسبة على أفعال غيره، ولو كانوا ذوي قربى، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[76]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[77].

فالإسلام ينظر للإنسان على أنه مستقلّ من جهة، وهو، من جهة أخرى، جزء لا يتجزأ من المجتمع، ولا يصلح بدون الأفراد الآخرين الذين يتعامل معهم، بل إن ما يعطي للحياة معناها، هو درجة التفاعل مع الآخرين. ويطول الحديث إن تم التعريج بالقول على أن ذلك التفاعل يوجهه الإسلام نحو الأحسن، حتى تتم سعادة أفراد المجتمع جميعاً.

وبذلك فإن «الإسلام لا يضخم الفرد، ولا يضخم الجماعة، فهو يغذي في الفرد النزعة الفردية بحيث يشعر بذاتيته واستقلاله، ويبيّن للإنسان دوره كفرد في إطار الجماعة»[78].

هذه المواصفات في الإنسان تفترض كيفيات للتعامل معها، وتفترض عدم إغفالها عند التصدي لتربيته، إذ يسوق إغفالها إلى نتائج وخيمة، حيث لا يجد الإنسان الخاضع للتربية ما يعانق فطرته، وما درب عليه، فتتجافى نفسه عن ذلك، بقصد أو بغير قصد، ويصعب أن تروّض نفسه لما لا يعانقها، فيجهد المربون أنفسهم في برامج لا صدى لها في نفس الخاضع للتربية، وتكون النتيجة كمن يحرث في البحر، تنتهي الآثار بانتهاء المربي من دوره، فتضيع جهود المجتمع من وراء الجهد التربوي التعليمي، ويكون النتاج غير سليم، يمتد تأثيره إلى ما بعد انتهائه.

---

(76) سورة عبس، الآيات: 34 ـ 37.

(77) سورة فاطر، الآية: 18.

(78) على خليل مصطفى أبو العينين، أصول الفكر التربوي، دار الفكر العربي ـ القاهرة، 1986م، ص: 70.